

الاستعمار الاستيطاني – تقديم عام

الدكتور جورج جبور(*)

بخلاف المشاكل الدولية الكبرى ، نمة بوئرتان مستمرتان للتوتر في العالم الثالث ، هما منطقة الشرق الأوسط ومنطقة الأقطار الجنوبية من أفريقيا . تكمن خلف هاتين البوئرتين من التوتر – وإحداهما متفجرة جدا راهنا والثانية سيزداد تفجرها مستقبلا – ظاهرة واحدة ، هي ظاهرة وجود مستوطنين غرباء عن روح المنطقة التي يستوطنونها ومؤمنين بتفوقهم على سكانها الأصليين . عدد هؤلاء المستوطنين هو ما يقرب من ثمانية ملايين يواجهون حوالي ٣٠٠ مليون عربي وأفريقي .

العوامل المشكلة للاستعمار الاستيطاني هي :

- ١ – انتقال سكان في الحقبة المعاصرة من أوروبا المزدحمة إلى مناطق غير أوروبية كان يقال إنها فارغة .
- ٢ – تأييد النظام السياسي والحضاري الأوربي لهذا الاستيطان الذي تم بالطبع على حساب السكان الأصليين .
- ٣ – ممارسة السلطة من قبل المستوطنين على الأرض التي تم بها الاستيطان .

وثمة نوعان من الاستيطان يمكن ، باعتبار المقبولية الراهنة ، أن يوصفا بالاستيطان المقبول والاستيطان غير المقبول . مثال الحالة الأولى هو ما تم في

(*) مدير مكتب الدراسات برئاسة الجمهورية العربية السورية ، والأستاذ المحاضر في الدراسات العليا بجامعة دمشق .

القارتين الأمريكية والاسرائيلية ، ومثال الحالة الثانية هو الوضع في المنطقتين العربية والأفريقية . كذلك ثمة استعمار استيطاني «نقي» لا يشارك فيه أحد سلطة المستوطنين ، وهناك استعمار استيطاني «مشارك» بين السلطة الاستعمارية التقليدية وسلطة المستوطنين (كما في أنجولا وموزامبيق) .

بدأت حركة الاستيطان مع عهد الاكتشافات الجغرافية، وتطورت حتى القرن العشرين ، وكان من محرّكاتها ادعاء الشعور « بعبء الرجل الأبيض » وفتح الأسواق أمام إنتاج الغرب . أما عملية الاستيلاء على السلطة من قبل المستوطنين فقد أخذت تتم بالتدريج في أمريكا أو لا ثم في أما كن الاستيطان الأخرى . ويلاحظ أنه في الحالات الثلاث للاستعمار الاستيطاني التي تعيننا حاليا (جنوب أفريقيا ، إسرائيل ، روديسيا) كانت بريطانيا هي الإمبراطورية وكان ثمة نزاع حاد بين المستوطنين وبين السلطة الإمبراطورية في المرحلة التي سبقت مباشرة انتزاع المستوطنين للسلطة .

ماذا يحدث عادة بعد استيلاء المستوطنين على السلطة ؟

لنلاحظ أن الإمبراطورية ، بحكم مسؤوليتها الأولية ، تحافظ عموما على حد أدنى من الحقوق لسكان البلاد الأصليين . إنها بالطبع ليست نصيرتهم ، ولكنها لا تعتبرهم أعداء لها بالمقدار الذي يعتبرهم به المستوطنون أعداء لهم . وعلى هذا فمن الطبيعي أن يزداد بؤسا حال السكان الأصليين لدى انحسار الإمبراطورية ، إذ بذلك يبقون تحت رحمة ألد أعدائهم وهم المستوطنون . والحق أن الأنظمة الاستيطانية تتميز كلها بممارسة أشنع أنواع العنصرية على السكان الأصليين . وهذه العنصرية يحكمها عاملان متناقضان : عامل اقتصادي ، هو الشعور بالحاجة إلى السكان الأصليين كيد عاملة رخيصة ، وعامل نفسي هو شعور المستوطنين بتفوق عنصرى على السكان الأصليين ، تفوق يدفعهم إلى كره التعامل والاختلاط مع أولئك السكان ، أى إلى عزلهم في معازل خاصة كما هو الحال في أفريقيا ، أو طردهم كلية كما جرى في فلسطين .

والآن ما هي الوضعية الراهنة لحالات الاستعمار الاستيطاني الثلاث
« النموذجية » ؟ .

ثمة تحديات توجه حالياً إلى حكم المستوطنين : هذه التحديات يوجهها
السكان الأصليون ، وتوجهها المناطق المحيطة بكيانات الاستيطان ويوجهها
المجتمع الدولي .

أقوى هذه التحديات هو الأول منها ، ويعبر هذا التحدي عن نفسه
الآن في ثورات مسلحة يقوم بها السكان الأصليون ضد المستوطنين . والحق
أنه في الحالات الثلاث المستعرضة ، نجد أن السكان الأصليين قد فقدوا
إيمانهم - منذ النصف الأول من الستينات - إلا بكفاحهم المسلح . أما
التحدي الإقليمي فيتجلى في موقف العداء السائر الذي تقفه المنطقتان العربية
والأفريقية من الكيانات الاستيطانية الثلاثة . وأخيراً فإن التحدي الذي
يوجهه المجتمع الدولي ، فعلى الرغم من أنه غير منال واقعياً ، وعلى الرغم
من أنه مختلف من حالة إلى أخرى ، إلا أنه يعكس قدراً من الاستهجان
الدولي لما يجري .

وأخيراً فإن مشكلة الاستيطان تطرح باستمرار مسألة المستقبل . وفي
هذا الصدد تركز رؤية المستوطنين للمستقبل على استمرار تفوقهم عنصرياً
وعسكرياً ، بينما تقوم رؤية سكان البلاد الأصليين على ضرورة سيادة مبدأ العدالة ،
سواء تمثل ذلك في شعارات مثل « رجل واحد صوت واحد » أو مثل « دولة
ديموقراطية علمانية » .

عضو اتحاد الجامعات العربية